في اللسانيات المعاصرة

التواصلية والتداولية ومعايير النصّ القرآنية

أ. د. نهاد فليح حسن العاني*

●المقدمة

ختمت اللسانيات المعاصرة في العراق دراساتها لعام ٢٠١٨م بكتاب(في اللسانيات المعاصرة، التواصلية والتداولية ومعايير النصّ القرآنية) الصادر عن دار سطور في بغداد في (١٢٨) صفحة من القطع المتوسط، لمؤلفه الدكتور صالح هادي القريشي استاذ اللغة في كلية الآداب بالجامعة المستنصرية في بغداد.

هدف وضع الكتاب: سعى المؤلف في كتابه الى الكشف عن حقيقة لغوية مفادها: أن الدراسات اللسانية المعروفة في البحث اللغوي المعاصر كالبنيوية والشكلانية والتحويلية التوليدية والسياقية والتداولية تستمد أصولها التأسيسية من الدراسات اللغوية القديمة المسجلة في التراث الفكري اللغوي ومدوناته عند القدماء بمختلف مناهجهم واتجاهاتهم في البحث و الاستقصاء ولا ينكر فضل ما أثارته الدراسات الحديثة من أصول هذه الدراسات المتقدمة ومن ثم منحها المصطلحات والمفاهيم لتساير افكار الدرس المعاصر وأصوله، ويرى المؤلف أن هذه المصطلحات والمفاهيم قد توافرت عليها الدراسات القديمة الا أنها صدرت بمسميات مختلفة وبتناول واحد وعلّة ذلك: أن اللغات الانسانية تتفق في كثير من جوانبها التكوينية والوظيفية والأبلاغية في طابع اجتماعي تواصلي «فاللغة منذ أن وجدت تنتمي الى مجموعة كبرى من الأنظمة التواصلية التي تؤلف بمجموعها ثقافة المجتمع اذن هي ذات طابع نسقي اجتماعي يتكلمها مجتمع ما وتتمثل في نظام او مجموعة من القواعد والمعايير المستقرة في نفس الجماعة اللغوية وهي كانت وما زالت اداة التواصل الاولى الى يومنا هذا». (ينظر: علم اللغة العام، سوسير ص ١٣ و الكفاية التواصلية، د.هادي نهر ص ١٨)

المنهج التطبيقي في اختيار المؤلف: تمثلت مادة الكتاب في منهجين لسانيين هما (التواصلية) و (السيميائية التداولية) وتطبيقها على معايير النصّ القرآني، لانهما منهجان ذات طبيعة وظيفية واحدة متمثلة بالتفاهم والابلاغية والتواصلية، واختار المؤلف مجالين من مجالات البحث فيهما:

* الجامعة المستنصرية _ كلية الآداب

الأول- لبيان موقع جهود الفكر العربي من الدراسات اللسانية هذه وهل تلتقي الجهود اللسانية المعاصرة اليوم في جوانب من مفاهيم الفكر اللغوي عند القدماء وتنظيراته وما مظاهر الالتقاء والاختلاف ؟

والأخر- لبيان خصوصية العربية المستمدة من عناصر مكوناتها المختلفة: الشعر والنثر والنصّ القرآني والحديث الشريف ومدى امكانية تطبيق المناهج الغربية عليها في التحليل والدراسة والتقويم.

فصول الكتاب: كشف المؤلف عن فكرته هذه والهدف من عرضها في ثلاثة فصول رأى انها مناسبة لتغطية موضوع البحث ومادته، وهي:

● **الفصل الأول:** الاتصال والتواصل وجهود العرب القدماء التنظيرية في مجاله، عرض اولاً لمفاهيم هذا الفكر ومصطلحاته والمعايير التي لابدّ من توافرها لتحقيق عملية التواصل وأهمها: المُرسِل، والرسالة، والمُرسَل اليه، أو المُنتج والفكرة، والقصد والقسم الآخر من الفصل، عرض فيه مدى ادراك الفكر اللغوي عند العرب القدماء لوظيفة اللغة التواصلية الاجتماعية وأهم مدوناتهم في هذا الخصوص، ولتيسير هذا الكشف قسم المؤلف المعارف الانسانية التي تعاملت مع النصّ القرآني لبيان الوظيفة التواصلية الاجتماعية لظاهرة اللغة الى المناحي العلمية الآتية:

ـ **علم الأصول،** وجاء تحت عنوان: الأصوليون والتواصل، إذ كان للأصوليين عناية خاصة واهتمام بالأسس التواصلية ومعاييرها في التعبير والقصد والافهام وتبعية المعنى وتركيبه وترادفه ومراعاة المعنى الشرعي وغيرها من أصول بناء النصّ اللغوي ومن شواهده ما توافر عليه كتاب (الموافقات في أصول الفقه) للشاطبي (ت ٩٥٠هـ).

ـ **علم النحو،** كشف المؤلف عن اهتمام الفكر النحوي بطرائق التواصل اللغوي المختلفة على مستوى المشافهة والكتابة ومحتواها الخطاب او النصّ ومن شواهده الفكر النحوي عند أبي بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه (ت١٨٠هـ) في (كتابه) وملاحظ من اهتمامه بتحليل اهم عناصر النصّ (الجملة) لان النصّ متوالية جملية تام المعنى (يحسن السكوت عليه).

ـ علم البلاغة، يرى المؤلف ان مؤلفات البلاغيين تفيض في بيان الوظيفة الاجتماعية والتواصلية لظاهرة اللغة وأهمية (السياق) في القصد والكشف عن المعنى، ويعدّ عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) و عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) من الذين فصلوا القول في مدوناتهم في نظرية التواصل اللغوي وقف المؤلف عند شواهدهما ولاسيما ما قدمه الجرجاني في كتابه (دلائل الاعجاز) من تأسيس لنظرية (النظم) القائمة على أثر (السياق) في بيان الوظيفة الافهامية للنصّ.

ـ **علم التاريخ الاجتماعي،** اهتم الفكر اللغوي والفكر التاريخي في مجاليهما الاجتماعي ببيان الوظيفة التواصلية الاجتماعية لظاهرة اللغة ومنهم اللغوي الاجتماعي إبن جني (ت٣٩٢هـ) اول من حدّ اللغة بإطارها الإجتماعي المعروف و وظيفتها التعبيرية التواصلية وكذلك عالم التاريخ الإجتماعي ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في (مقدمته)، كشف المؤلف عن جهودهما في اهمية الفعل اللساني (اللغة) بتدبير قصد المتكلم وافادة الكلام.

بهذا العرض قدّم المؤلف دراسة موجزة للوظيفة التواصلية لظاهرة اللغة في الفكر المعرفي عند العرب القدماء وهي وظيفة تقوم على أسس وأركان ومعايير تمثل غاية الدراسات النصية والتداولية وختمها بالقول «ان للعرب جهودا كبيرة ومتعددة في دراسة التواصل تتعدد بنوع العلوم التي تناولها العرب تمثل ما وقف عليه اللسانيون التواصليون اليوم»(التواصلية والتداولية ص ٤٤).

● **الفصل الثاني وعنوانه:** فشل التواصل في سيميائية التداول

هدف المؤلف في هذا الفصل من كتابه الى الاجابة عن سؤال افتراضي: هل كل حدث تواصلي يكتب له النجاح ؟ ام هناك معوقات تفشل العملية التواصلية ولاسيما في (السيميائية) ذلك اللفظ الذي أطلقه علماء اللسانيات على الاشارات اللغوية

بمختلف انواعهـا اللفظية والعلاماتيـة والرمزية والحركية وغيرهـا، إذ هو يتخلى عن مصطلح لغة ويعدّ كل فعل تواصلي فعلا سيميائيا وبذلك وضع البحث اللسـاني مفهوم (سـيمولوجيا التواصل) ورأى المؤلف ان هذا التواصل قد يتعرض لأسباب و آليات لم تضمن استمراره ونجاحه مما يمكن ان يعدّ فشلا، وهي:

ـ العنف اللغوي، يعدّ ألعنف الرمزي اللغوي اكثر أشـكال الصراع انتشـارا في التواصـل اللغوي بين المتكلـم (الباث) و (المتلقي) وأكثر ما يكون موقفا سيكولوجيا ينبيء عن انفعال لحظة التواصل مما يولد الصدام والعداء بين الافراد ومن ثم اشـكالية تواصلهم وقد يقود فشـل الرمز اللغوي ولبسه الى فشـل التواصـل الاجتماعي لاحقـا وانقطاعه بين المتحاورين.

ـ القصديـة، يرى المؤلف أن التواصل قد يفشـل بسـبب عدم فهـم الملفوظ الذي قد يـؤدي الى عدم فهم قصد المتكلم، و ألمح الفكر اللغوي عند القدماء والمعاصريـن بلـزوم القصدية والنيـة في الخطاب لقبـول الملفوظ وعدمها يفسـد النصّ ويعد باطلا عديم الأثر كأنه لم يكن.

ـ عـدم مطابقة مقتضى الحال، من ألاسـباب التي أدرجهـا المؤلـف في فشـل التواصـل لأن لكل فعل كلامـي ظروفه الخاصة التي يولد فيها مما يعرف بـ(مقتـضى الحـال) والبلاغة في أبسـط مفهومها (مطابقـة الـكلام لمقتـضى الحـال) وبقـدر هذا التطابـق يتم التواصل أو يفشـل وعـرض المؤلف لأمثلة اللسـاني (اوسـتن) وتعليله للنصوص ذات الطابع الانجازي وسر نجاحها مناسـبتها لمقتضى الحال وتجنبها حالة المـزاح والهزل فان لم تتوفر الشروط اللازمة فشل التواصل تداوليا.

ـ السـياق وعـدم وضـوح المعنـى، اعتمـدت التداولية على السياق في فهم الخطاب فهما سليما، ويرى المؤلف ان (السياق) عنصر آخر من عناصر فشل التواصل لأن مشكلة السياق يترتب عليه عدم (وضـوح المعنى) لذا يسـتوجب توخـي الوضوح في الرمـز اللفظـي ومطابقتـه للشـكل القواعدي وترتيبـه، وفيـه عـرض المؤلـف لأسـس النظرية اللغويـة المعـاصرة ومبادئهـا المعروفـة بنظرية (المحادثة) للسـاني (غرايس) وهـي نظرية تقوم على فهم الخطاب التواصلي بموجب أربع مسلمات يؤدي الاخلال في التعامل معها الى فشـل التواصل لأنها تقوم اصلا على مبدأ التعاون بين المتحاورين.

الفصل الثالث، جاء تحت عنوان: المعايير النصية والتلقي العربي وخصوصية النصّ القرآني

ويعدّ أهم فصـول الكتاب وموضوع تأليفه، وبعد أن قدم المؤلف عرضاً مفصلاً للمعايير التي تحكم النـصّ اللغـوي وتـؤشر نصيتـه رأى ان من هذه المعايير لا تناسب طبيعة النصّ العربي بل لا يصلح تطبيقها عليه لأن الفكر اللساني الذي وضعها كان ينظـر الى طبيعة لغات مختلفة وملامح اتسـاقها لا تتوافـر عليها طبيعـة العربية، ومـن هنا دعت الحاجة الى الكشف عن معايير مناسبة تخضع لها دراسـة النـصّ اللغوي في العربيـة اي هناك حالة رفض من بين هذه المعايير، ولم يكن رفض المؤلف جملة وتفصيلا بل التوسط في استيعاب ما يناسب تطبيقـه على العربية الى حدّ مـا وترك الآخر لعدم مناسـبته خصوصيـة العربيـة في نصهـا اللغوي مما يتطلب الكشـف عـن معايير اخرى مسـتقلة تناسـب قراءة النصّ القرآني لغويا وبيان اتساقه وتحقيـق نصيتّه «إذن نصوصنـا العربية بحاجة الى معايير تناسـبها يتم الكشـف عنهـا من نتائج دراسـة تراثنا العربي الأدبـي و الديني المبني على دراسـة نصوص لغوية من القرآن الكريم وبلآغته واعجـازه وتضمنـت هـذه الدراسـات مفاهيـم بمسميات مختلفة تقارب المفهوم المعاصر لدراسة النـصّ وقصديته وغايته،لذلـك عمد المؤلف في هذا الفصل الكشف عما يتعلق بمعايير النصّ القرآني عنـد المهتمين بدراسـته من لغويـين ومفسرين في مدوناتهـم الأولى من تاريخ البحث العلمي العربي الاسـلامي التـي يمكـن اضافتها معايـير خاصة بالنصّ القرآني، وهـي:

١- أسـباب النزول: «بيان سـبب النزول طريق قـوي في فهـم معانـي القرآن»(اسـباب النـزول للواحدي ص ٨).

وعـده المؤلـف مـن أظهـر خصوصيـات النصّ

القرآنــي، وله فيه شــواهد متميــزة لأن الكثير من نصــوص القــرآن وجمله تلبس المعنــى لولا العلم باســباب نزولها مما يسرّ فهم المراد منها وهدفها، والعلم بســبب النــزول يجعل للنــص معيارا عند المفسريــن لبيــان تماســكه وترابط أجزائــه، إذن اهميتــه الوقوف على معنى النصّ وازالة اشــكاله (البرهان، الزركشي ص٣٤).

٢- الناســخ والمنســوخ: يرى المؤلف في شواهد مختــارة من النــصّ القرآني أن المفــسر قد تمكن مــن فهم معنى النصّ الناســخ ودلالته من النصّ المنســوخ منه وســبب نســخه اذ يحلّ الاول محل معنى الآخر فينسخ معناه وحكمه ويأتي بالحكم الآخر، وهذا مظهر من مظاهر الانســجام في اطار النصّ الشــامل وهو علم واســع مــن علوم القرآن الكريــم يســتوجب فهــم المتلقي لحكم المنســوخ الســابق لنجاح التواصل وتحقيق انسجام النصّ و للمؤلــف امثلة منه في تحليــل الاحكام الشرعية في نصّــين مختلفين من ســورة البقــرة الآية ٢٣٤ و٢٤٠ وسورة الاحزاب الآية ٥٠ وسورة النساء٤٣ وسورة المائدة ٩٠.

٣- الوقــف والابتــداء: من خصوصيــات النصّ القرآني لمعرفة انســجامه حالتي الوقف والابتداء ويعدّ معيارا مهما لدراســة بنيــة النصّ في التراث الفكري عنــد اللغويين والمفسريــن لأنه «من تمام معرفــة فهم النصّ إذ مواطــن الوقف تغير معنى النصّ ومفهومــه والتام منه يحســن القطع عليه ولا يتعلــق شيء مما بعده بــه» (المكتفي في الوقف والابتداء ص ٨ -١٠).

واكده المؤلف معيارا تطبيقيا في نصوص من الذكر الحكيم لبيان أثر القطع في اقرار معنى النصّ

٤- التمثيــل: عنــد البلاغيين والمفسريــن القدماء معيار يساق لربط أجزاء النصّ ببعضها وايصال الفكرة التي يحملها ســليمه الى متلقيه وكذلك هو في النصّ معيار يحقق التماســك المطلوب كاملا في أي نصّ ادبي تأثيري ولا يتحقق عند القدماء الامن جملة من الكلام او جملتين أو اكثر و لمؤلف الكتاب نصّ تطبيقــي من القرآن الكريم كان التمثيل فيه آلــة لنسج خيوط الخطاب (ص ١٠٤).

٥- المناســبة او التناســب: معيار نصيّ الهدف منــه معرفة العلاقــة الرابطة بين الآيات والســور والكيفيــة التي تمّ بموجبها ترتيب آيات الســورة وأصــول المقاربة بين موضوعاتهــا وهذه الرابطة حققت عند المؤلف انســجاماً في نصوص تطبيقية مــن ســورة البقرة وســورة الانبيــاء وكيف حقق النصّ انسجاماً في اختيار كلمة مناسبة لكل جملة فيه وكان لهذه الكلمة إسهام في نصيته.

٦- الفواصــل القرآنيــة: ناحية لفظية شــكلية بين أجزاء النصّ كقافية الشــعر وقرينة الســجع، تدخل في معيار الســبك باعتبارأن الفاصلة تُسهم في تشــكيلة ربــط النصّ « ومؤثر في اعتدال نســق الكلام وحسن موقعه في النصّ»(البرهان، الزركشي ص٥٥) وقدم المؤلف بموجب هذا المعيار نصوصا مــن القرآن الكريم اكدت فيهــا الفاصلة المضامين المركزيــة التي توافــرت عليها الســور القرآنية و موضوعاتها ٠

٧- الحــوار و التحاور: يرى المؤلف أن آليــــة الحوار في النصّ تقود الى حبكه وشّــده وتماســكه لارتبــاط المقــولات التــي تضمنها النــصّ بعضها بــالآخــر وعلاقــة الجــوار هــي احــدى العلاقات الملحوظــة التي تعمــل على حبك النــصّ من دون رابط لفظــي وفي اختيار المؤلف نصّ تطبيقي من القرآن الكريم كان لأسلوب الحوار فيه أثر مباشر في تماســكه وترابط أجزائه يأخذ بعضه باطراف بعض (الآية ٣٤ -٤١ من ســورة الكهف) (ينظر ص ١١١ من الكتاب).

٨- الاجمال والتبيين: المجمل ما لم تتضح دلالته وهــو واقع في نــصّ القرآن الكريــم يتحمل النصّ فيــه اكثــر من معنى مشــترك، ثم يأتــي التبيين- التفصيــل- ليوضــح المجمــل، إن علاقــة الاجمال والتفصيــل مــن العلاقــات التي اهتــم بها مفسر القرآن الكريــم واتخذ منها المؤلــف معيارا دقيقا من معايير ترابط النصّ القرآني تُســهم في سبكه واســتدل به في نماذج تطبيقية مــن النصّ القرآن (ينظر ص ١١٣- ١١٤).

٩- التقسيم والعدد: معيار نصيّ يراد به أن المتحدث يضمن النصّ تسلسلا منطقيا واقساما وفروعا مما يعمل على ترابط اجزاء النصّ ببعضها حتى تستوفي الاقسام فروعها، وفي معياريته يقول الزركشي: «هو استيفاء المتكلم اقسام الشيء بحيث لا يغادر شيئا وهو آلة الحصر ومظنة الاحاطة بالشيء» (البرهان ص٧١١) .

١٠- السؤال و الجواب: معيار من معايير أساليب الكلام يقوم على اجراء الخطاب بين طرفي السؤال وجوابه وهما من أسس التواصل اللغوي لأن الجواب مظنة السائل وهدفه، والاصل في الجواب ـ عند المفسرين ـ أن يكون مطابقا للسؤال والتزام العلاقة بين السؤال وجوابه من مظاهر بناء النصّ القرآني ومن هنا اتخذ منه المؤلف معيارا دقيقا من معايير تقويم النصّ و مظهرا من مظاهر بلاغته واعجازه وامثلته متوافرة في النصّ القرآني مما عرضه من شواهد.

١١- الايضاح بعد الابهام: معيار آخر لا يختلف كثيرا عن معيار الاجمال والتفصيل والتبيين السابق ذكره، باختلاف التسمية واهميته في معيارية النصّ تمكين المعنى في النصّ ومظهرا من مظاهر تماسكه.

● الخاتمة والاستنتاج

- توصل المؤلف الى ان الفكر المعرفي عند العرب قد أدرك أهمية الوظيفة التواصلية للغة من لغويين وغيرهم، ولهذه المهمة أسس واركان وغايات وإن التواصلية هي هدف التنظير اللساني المعاصر في التداولية والنصية وغايتها.

- يرى المؤلف أن ليس كل عملية تواصلية يكتب لها النجاح بل قد يتعرض لها أسباب تؤدي الى فشل الحدث التواصلي في لغة التخاطب التداولية.

- كشف المؤلف عن المعايير النصية التي وضعها الفكر اللساني المعاصر من أمثال ما جاء به اللساني دريسلر ودي بوجراند وهاليداي ورقية حسن مما يعرف بمعايير النصّ السبعة التي لا يمكن تطبيقها على العربية ولاسيما النصّ القرآني لخصوصيته المعجزة مما يتعذر اخضاعه لهذه المعايير.

- لا ينكر أن من هذه المعايير ـــ بلا شك ـــ له مصداقيته في تراثنا اللغوي لكنه صدر بمسميات ومفاهيم ومصطلحات مختلفة عما هي عليه في الدرس اللساني المعاصر.

- ومن هنا جهد الباحث في الكشف عن أحدَ عشرَ معياراً لغوياً يمكن اعتمادها في قراءة معايير النصّ القرآني في مقابل المعايير التي تحكم النصوص وتؤشر نصيتها في الدرس اللغوي المعاصر.

- ويذهب المؤلف الى أن هذه المعايير ـ الأحدَ عشرَ ـ منها ما يعدّ مشتركا في تشخيص ظاهرة السبك أو الاتساق أو الحبك او الانسجام وبيانها ومنها خاص في ظاهرة الحبك فحسب.

وضع المؤلف في هذا الكتاب اللبنة الاولى لمعايير النصية في العربية وهو جهد موفق الى حدّ ما في تشخيص هذه المعايير الاشتات في مدونات الفكر المعرفي عند القدماء من متابعته للموضوع واستقصاء هذه الجهود ومن ثم بين مدى مناسبتها لدراسة النصّ القرآني على وجه الخصوص.

واخيرا الكتاب يأخذ حيزاً مهما في المكتبة اللسانية العربية ولاسيما التطبيقية منها لا يستغني عنه الباحثون وطلبة الدراسات العليا في باب اللسانيات المعاصرة.

● المراجع

- اسباب النزول، الواحدي النيسابوري، ط٢، دار الهلال، بيروت ١٩٨٥م.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧١م.
- علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير، تر د. يوئيل عزيز، بغداد ١٩٨٨م.
- الكفاية التواصلية والاتصالية، د. هادي نهر، دار الفكر، عمان ٢٠٠٣م.
- المكتفي في الوقف والابتداء، أبو عمرو الداني، تح د.جايد زايد، بغداد ١٩٨٣م.

Book:In Contemporary Linguistics Communicative, deliberative and the Qur'anic text criteria

By: Dr. Nihad Fuleih Hassan Al–Ani

College of Arts \AL–Mustansiriyah University

Abstract

This research presented a book in which the author seeks to reveal the linguistic fact that linguistic studies in contemporary linguistic research as structuralism, formalism, transformational generative, contextual and deliberative its origins derive from ancient studies in the linguistic in–tellectual heritage of the ancients in different approaches and trends in research and exclusion and to show the best of what the modern studies raised from the origins of these advanced studies and then give them terms and concepts to match the thoughts of contemporary study and its origins, the material of the book was two linguistic approaches they are communi–cative and deliberative semiotics and applied to the Qur'anic text criteria.